(٣٢)

الواقفان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ. قال شيخ الإسلام رحمه الله وغفر له ولشيخنا: ((وأما «القسمان» الواقفان: «فقسم» يقولون: يجوز أن يكون المراد ظاهرها الأليق بجلال الله، ويجوز أن لا يكون المراد صفة الله ونحو ذلك. وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم. وقوم يمسكون عن هذا كله، ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات.))

الحمد لله رب العالمين وصلى اللهم وسلم وبارك على سينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

هذان القسمان الأخيران الواقفان. لكن وقوف أحدهما وقوف عدمي والآخر وقوف وجودي إن صح التعبير. كيف؟ القسم الأول يقولون يجوز أن يكون المراد ظاهرها اللائق بالله كما يقول أهل السنة والجماعة، ويجوز أن يكون المراد ليس صفة لله كما يقول أهل التعطيل من المعتزلة. يعني أنهم جوزوا الأمرين. قال **وهذه كطريقة كثير من الفقهاء** ومراده من الفقهاء المتأخرين الذين لم يرفعوا رأسًا بتحرير هذا الباب الشريف وانكفؤوا على مسائل الفروع ولم يلتفتوا لضبط مسائل الأصول. وهذا موجود قديمًا وحديثًا إلى يومنًا هذا. تجد من الناس من يعنى بمسائل الفروع والفقه ولا شك أن الفقه في الدين والشرع أمر حميد، لكنهم لا يضبطون الفقه الأكبر المتعلق بالعقائد والأصول فتجدهم إذا ألقي الأمر عليهم قالوا والله يجوز ويمكن أن يكون ما قاله السلف هو الصحيح ويجوز ان يكون ما قاله الخلف هو الصحيح. سبحان الله ! ينبغي القطع في هذه الأمور وألا تكون في المزاد هذا يجوز وهذا يجوز.

أما مقابلوهم هم الذين صموا آذانهم وأسماعهم وقلوبهم فهم فقط يتلون دون أن يقولوا شيئًا. يمسكون كما قال لا يزيدون بل يمسكون في هذا كله ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات. ولا شك أن هذا المسلك فيه من الحرمان ما لا يخفى. إذ أن أعظم ما في القرآن هو تدبره وأعظم التدبر هو تدبر ما ينبغي لله ﷻ من صفات الكمال ونعوت الجلال. وطريقة هؤلاء طريقة أهل الكتاب الذين لا يقرؤون الكتاب إلا أماني. فلاشك أنها طريقة مذمومة وليس هي التي كان عليه عليها السلف رضوان الله عليهم.

((فهذه الأقسام الستة لا يمكن أن يخرج الرجل عن قسم منها، والصواب في كثير من آيات الصفات وأحاديثها، القطعُ بالطريقة الثابتة كالآيات والأحاديث الدالة على أن الله سبحانه فوق عرشه، وتعلم طريقة الصواب في هذا وأمثاله بدلالة الكتاب والسنة والإجماع على ذلك، دلالة لا تحتمل النقيض، وفي بعضها قد يغلب على الظن ذلك مع احتمال النقيض، وتردد المؤمن في ذلك هو بحسب ما يؤتاه من العلم والإيمان، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور. ومن اشتبه عليه ذلك أو غيره فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»، وفي رواية لأبي داود: كان يكبر في صلاته ثم يقول ذلك.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ [1]

فإذا افتقر العبد إلى الله ودعاه، وأدمن النظر في كلام الله وكلام رسوله وكلام الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين: انفتح له طريق الهدى. ثم إن كان قد خبر نهايات إقدام المتفلسفة والمتكلمين في هذا الباب، وعرف غالب ما يزعمونه برهانًا وهو شبهة، رأى أن غالب ما يعتمدونه يؤول إلى دعوى لا حقيقة لها، أو شبهة مركبة من قياس فاسد، أو قضية كلية لا تصلح إلا جزئية، أو دعوى إجماع لا حقيقة له، أو التمسك في المذهب والدليل بالألفاظ المشتركة. ثم إن ذلك إذا ركب بألفاظ كثيرة طويلة غريبة عمن لم يعرف اصطلاحهم، أوهمت الغِرَّ ما يوهمه السراب للعطشان، ازداد إيمانًا وعلمًا بما جاء به الكتاب والسنة، فإن الضِدَّ يُظهِر حُسْنَه الضدُّ، وكل من كان بالباطل أعلم كان للحق أشد تعظيمًا، وبقدره أعرف.)) بين الشيخ رحمه أن هذه الأقسام الستة لا يخرج عنها أحد ولا يمكن أن يكون أحد إلا من هذه الأقسام الستة فهي قسمة حاصرة. ثم بين بأن المقطوع به من هذه الأقسام الستة هو ما كان عليه السلف الصالح من إجرائها على ظاهرها على الوجه اللائق به تعالى. فإن قيل بم يعرف ذلك؟ وكيف لنا أن نقطع أن هذه الطريقة هي الطريقة الصائبة من بين جميع هذه الأقسام؟ ذكر أنواعا من الأدلة: الكتاب والسنة والإجماع. فهذه هي الأصول العظام التي يبنى عليها. فمن استدل بالكتاب وجد الكتاب يدل على الإثبات والتنزيه. وكذلك السنة. وكذلك انعقاد إجماع السلف الصالح. قال الشيخ رحمه الله ((**وهذا ظاهر بين في عموم آيات الصفات**)) لكن ربما في بعضها ترد لوجود حديث محتمل يعني محتمل من حيث الثبوت فقد يصححه بعض أهل العلم وقد يردونه، وربما بعضها يشتبه من حيث الدلالة على الإنسان، لكن فرق معشر طلبة العلم بين الاشتباه في أصل المنهج والاشتباه في مفرد من مفرداته أو نص من نصوصه. أن يشتبه على العالم نص معين أو جزئية معينة هذا يقع لبني آدم وهنا يسرع العبد لربه ويسأل الله ﷻ أن يبين له ما اختلف فيه من الحق بإذنه. وما قد تقرؤونه من التعبير بالتفويض في مثل ذلك إنما يراد به تفويض العلم فيما اشتبه على الإنسان في نص معين في وقت معين من شخص معين. لا عموم المنهج فإن عموم المنهج مطرد ثابت وصفات الله ﷻ المذكورة في القرآن العظيم وفي أدلة السنة الصحيحة المتفق عليها لا مواراة فيها لكن قد تلتبس بعض النصوص على بعض الناس دون بعض لاختلاف الناس في فهومهم وعلومهم وهذا أمر وارد؛ لهذا قال الشيخ رحمه الله ((**ومن اشتبه عليه ذلك أو غيره فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»، وفي رواية لأبي داود: كان يكبر في صلاته ثم يقول ذلك.**)) وفي رواية أبي داوود ((إذا كبر)) يعني ذلك من أدعية الاستفتاح في صلاة الليل. يا أخوة هذا دعاء عظيم. يقول تعالى (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم) فما أحوج العبد للاستهداء بالله تعالى في هذا المقام العظيم وحتى في أمور الحياة حينما تلتبس عليك الأمور فالهج بهذا الدعاء فإن الله ﷻ يهديك لسواء السبيل. فإذا فعل الإنسان ذلك كان حريًا أن يدله الله عليه.

الدليل الرابع بعد هذه الثلاثة باعتبار هذه الثلاثة النظر والاعتبار بحال المتكلمين الذين جفوا طريقة السلف واشتغلوا بعلم الكلام فإن نهايات إقدام المتفلسفة والمتكلمين في هذا الباب هي الحيرة والاضطراب. وقد ذكر الشيخ رحمه الله أمثلة على حال المتكلمين. فانظروا حال من حاد عن طريقة السلف ما آل إليه أمره. ولا ريب أن المقصود الأعظم من العقيدة هو تحقيق السكينة والطمأنينة

وثبات العقد؛ لأنه مأخوذة من عقد هو الجزم والشد والربط. فأما منهج مفضي للتردد والاضطراب فلا يمكن أن يكون منهجًا سليمًا. منهج يتضمن التناقض فلا يكون على نسق واحد مطرد هو دليل فساده فيه. وهكذا. ولهذا الشيخ رحمه الله رأى أن ما يزعمونه برهانًا إنما هو شبهة وأن ما يعتمدون عليه – وهذه أيضًا جمل على قلتها لكنها تصلح أن تكون مادة للتفريع والتمثيل يقول: غالب ما يعتمدونه يؤول لدعوى لا حقيقة لها. ولطالما ادعى هؤلاء دعاوى لا حقيقة لها. مثلاً يقولون أن من أصول الاعتقاد نفي حلول الحوادث. طيب : الله ﷻ ليس محلاً للحوادث لكن لا نسلم لكم أن صفاته الفعلية حوادث. لم يزل الله فعالاً لما يريد فأنتم حملتم هذا الشيء على أنه حادث لتتوصلوا لنفي ما أثبته الله ﷻ لنفسه. فهذه عوى لا حقيقة لها أو شبهة مركبة من قياس فاسد مثلاً يقولون إثبات الغضب لله ﷻ يستلزم التمثيل لماذا؟ قالوا؛ لأن الغضب هو فوران دم القلب لطلب الانتقام. سبحان الله أنتم الآن قستم الخالق بالمخلوق. من قال لكم إن غضب الخالق كغضب المخلوق حتى تقولوا أن الغضب هو فوران دم القلب لطلب الانتقام! هذا غضب المخلوق. فهذا المعنى الذي هو للمخلوق ينزه الله عنه لكنه لا ينافي أصل الصفة التي أثبتها الله ﷻ لنفسه. أو قضية كلية لا تصلح إلا جزئية فيأتون ببعض القضايا العامة فيطبقونها ويتوصلوا بها إلى نفي بعض الأشياء الجزئية كقولهم بعض الموصوفات ليس بجسم وكذا. يعني من القضايا التي يدعونها أن إثبات الصفات يستلزم الجسمية. إذن إثبات صفات العين والكلام يدل على أن الله جسم فيجب تأويلهما أو نحو ذلك. أو دعوى إجماع لا حقيقة لها وهذا يستعملونه من باب الإرهاب الفكري فيقولون "انعقد الإجماع على كذا" ولا إجماع ولا شيء. يقولون "ومذهب المحققين كذا وكذا " ولا تحقيق وإنما هي مجرد دعاوى، ويقصدون بالمحققين أصحابهم، والأمر ليس كذلك فهذه دعاوى. أو التمسك بالمذهب فيقولون "هذا الذي وجدنا عليه أئمتنا" ولا يرضون أن تقول له قال الله قال رسوله. وقد حكينا لكم قولاً عظيمًا قاله أحدهم قال (كل نص يخالف) لاحظ "نص" وليس قول (**كل نص يخالف ما قاله الأصحاب فهو إما منسوخ وإما مؤول**) سبحان الله ! صار الأصل إذن ما قاله الأصحاب، وما قاله الله ورسوله فليست هي الأصل وآخر يقول "إن ظواهر الكتاب والسنة تدل على الكفر الصراح". هل يعقل أن تصدر هذه الكلمة البائرة من مؤمن؟ أن يقول ظواهر الكتاب والسنة تدل على الكفر البواح حيث جعل كلام الله الذي هو هدى وبيان وموعظة وشفاء يدل على الكفر الصراح ! واعجباه!.

((**فأما المتوسط من المتكلمين، فيخاف عليه ما لا يخاف على من لم يدخل فيه، وعلى من قد أنهاه نهايته، فإن من لم يدخل فيه هو في عافية، ومن أنهاه فقد عرف الغاية، فما بقي يخاف من شيء آخر، فإذا ظهر له الحق وهو عطشان إليه قبله، وأما المتوسط فمتوهم بما تلقَّاه من المقالات المأخوذة تقليدًا لمعظمه وتهويلاً.وقد قال الناس: أكثر ما يفسد الدنيا: نصف متكلم، ونصف متفقه، ونصف متطبب، ونصف نحوي، هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد اللسان.**)) صحيح الشيخ رحمه الله تكلم في الأثر على عقائد الناس. الواقع أن أكثر الناس تضررًا بكلام المتكلمين هذا الغر الذي لم يحط بكامل الأمر وإنما أوغل فيه، يعني لا هو لم يدخل فهو في عافية منه، ولا هو انتهى لنهايته فأدرك نهايات إقدام العقول وإنما توسط في اللجة. تمامًا كثلاثة نفر وقفوا على حافة نهر أو بحر فأحدهم آثر العافية وقال لا حاجة أن أخوض هذا البحر الخضم فأنا في عافية وسلامة. والآخران قالا لا بل نقطعه، فأما أحدهما فأوتي قوة ومد في عمره حتى وصل للضفة الأخرى فنجا لكن بعد ماذا؟ بعد أن تعرض لهذه المخاطر والمجازفات وبذل جهدًا وأفنى وقته فيه. وأما الثالث فهو الذي انقطع في الوسط وغاب في اللجة وهلك. فهكذا من يقبل على علم الكلام. العاقل الذي قال هذا أمر وسع النبي ﷺ

والصحابة والتابعون تركه فلا حاجة لي به فانصرف عنه. فهذا قد عوفي وحفظ عمره وصان عقله. والآخر دخل فيه حتى وصل لمنتهاه لكن بعد جهد جهيد اكتشف الحقيقة وقال :

نهاية إقدام العقول عقالُ وأكثر سعي العالمين ضلالُ

وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبالُ

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

هذا هو التقرير النهائي، لكن بعد ماذا؟ بعد أن أمضى عمره وسود الصفحات وعقد المناظرات وخرج بلا طائل. والخطر العظيم هو ذاك الذي توسط فيه ولم يصل لمنتهاه كالذي يقول أني آوي لفراشي فأضع الملحفة على وجهي فيدلي هؤلاء بحججهم فانقلب على الشق الآخر وأضع الملحفة فيدلي الآخرون بحججهم. يعني يستعرض حجج المتكلمين نزاعاتهم وملاسنتهم وهو كذلك يقول حتى يبرق الفجر. أبهذا أمرنا وبهذا كلفنا؟ لا والله. فهذا فعلاً هو من على خطر عظيم. ولهذا من ينتصف في الشيء ولا يبلغ منتهاه فهو على خطر. وقد ذكر هذه الجملة اللطيفة ((**أكثر ما يفسد الدنيا نصف متكلم**)) هذا يفسد الأديان ((**ونصف متفقه**)) وهذا يفسد البلدان، لعله بسبب أنه يحمهلم على خلاف الشرع ((**ونصف متطبب يفسد الأبدان نصف نحوي يفسد اللسان**)) صحيح. ثم ختم الرسالة بقوله.

((**ومن علم أن المتكلمين من المتفلسفة وغيرهم هم في الغالب في {قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ • يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [الذاريات:٨.٩] يعلم الذكي منهم العاقل: أنه ليس هو فيما يقوله على بصيرة، وأن حجته ليست بيِّنة، وإنما هي كما قيل فيها:**

حججٌ تهافتُ كالزجاج تخالها حقًا وكلٌّ كاسر مكسور

[النظر إلى أهل الكلام بعين الشرع وبعين القدر] :

ويعلم العليم أنهم من وجه مستحقون ما قاله الشافعي . رضي الله عنه . حيث قال: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام».

ومن وجه آخر إذا نظرت إليهم بعين القدر . والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم . رحمتَهم ورفقتَ عليهم، أُوتُوا ذكاءً وما أُوتوا زكاءً، وأُعطوا فُهومًا وما أُعْطُوا علومًا وأُعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون} [الأحقاف: ٢٦].)) إي والله هذا توصيف دقيق لحال لمتكلمين. وتلحظون الشيخ رحمه الله عنده إنصاف. فهو يقول نحن ننظر لهؤلاء بعينين بعين الشرع وبعين القدر، فإذا نظرنا لهم بعين الشرع وجدنا أنهم مستحقون لقول الشافعي **حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام**».فهم مستحقون لهذا لأنهم وطأوا هذا البساط عن بينة وزهدوا في علوم أهل الإسلام وخاضوا البحر الخضم الذي نهوا عن الخوض فيه فحكم الشرع أن يعزروا ويأنبوا ويشهر بهم، ويحذر منهم وهذا ما وقع من السلف السلف رحمهم الله فإنهم لم يزالوا يؤلفوا المؤلفات في التحذير من علم الكلام والنقد على أهله وبسط ذلك يطول. ثم إن الشيخ رحمه الله نظر لهم من زاوية أخرى هي بعين القدر، يقول لو

نظرنا لهم بعين القدر بكينا لهم ورحمناهم أن كان هذا هو حالهم وقدرهم، أوتوا ذكاءً ولم يؤتوا زكاءً وأوتوا عقولاً ولم يؤتوا فهومًا بل نجدهم مثل فرسان الميدان في علوم الآلة والمنطق واللغة وبعض العلوم الشرعية كالأصول وغيرها لكنهم في هذا الباب العظيم الشريف الذي عليه مدار الدين والتعبد لله ﷻ مضطربون محتارون. فلهذا ما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء. ولو سأل سائل أين المتكلمون؟ أهم موجودون الآن أم نحن نتكلم كلامًا مع أشباح ! لا، لا تزال المدارس الكلامية هي المدارس القائمة في العالم الإسلامي للأسف، يعني الجامعات الإسلامية في عموم العالم الإسلامي لا تزال تتوارث متون ومنظومات أئمة الأشاعرة التي مبناها على علم الكلام، لا على مؤلفات السلف الصالح من الأئمة المتقدمين. بل الذي يدرس في الجامعات هو هذا. لكن عامة المسلمين لا يسيغون هذه العقائد؛ لأنها لا تدخل عقولهم أصلاً. فتجد الذين ينظرون في هذه القضايا يعيشون في بيئات نخبوية ويتحدث بعضهم مع بعض. لكن العامة على فطرهم باقون إلا أن تلتاث بشيء من هذه اللوثات التي يسقها هؤلاء لهم. وهذا يدلنا على أهمية وعظم دور طلبة العلم في بيان عقيدة السلف الصالح وإزالة الشبه والإشكالات واللغط والشغب الذي أثير حولها. فإني على يقين أنه لو عرض مذهب السلف من منطوق الكتاب والسنة مباشرة إن الناس جميعًا سيفرحون به ويعدونه ظفرًا لكن هذه مهمة طلبة العلم أن يصلوا للناس؛ ولهذه المحاضن العلمية ليكشفوا هذا الزيغ ويحقوا الحق ويبطلوا الباطل.

((**ومن كان عليمًا بهذه الأمور: تَبَيَّنَ له بذلك حذق السلف وعلمهم وخبرتهم، حيث حذروا [عن الكلام ونهوا عنه، وذمُّوا] أهله وعابوهم، وعلم أن من ابتغى الهدى في غير الكتاب والسنة لم يزدد إلا بعدًا.**

فنسأل الله العظيم أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين.))

جزى الله شيخ الإسلام خير الجزاء على ما خط بنانه وأعمل فكره فيه وبين وأظهر للقارئ وجلى مذهب السلف رحمه الله رحمة واسعة وقد كان لهذه الفتوى دوي هائل في زمنها وامتحن الشيخ بسببها وسجن ولكنها كانت علامة فارقة في حياته هو رحمه الله إذ كانت على رأس القرن كما ذكرنا لكم في مقدماتها في نحو سنة ٦٩٨ هـ ، وابتلي بسببها لكن البلوى دائمًا يكون سببًا لنشر الحق فطفق الناس يبحثون عنها ويحتملونها:

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

فانتشرت هذه الفتوى التي تعد أحسن ما كتب في جلاء مذهب السلف من مظانه ومن مصنفاتهم رحمهم الله.

فنسأل الله أن يجزي شيخ الإسلام خير الجزاء على ما كتب وما كان سبب في هداية الخلق إليه وأن يعز دينه ويعلي كلمته.

والحمد لله رب العالمين.